من مذكرات ملاك

رواية

نسخة إلكترونية
مايو ٢٠١٠

الراهب سارافيم البرموسي

من مذكرات ملاك النسخة الإلكترونية

حينما يرتوي خيالنا من واقعنا تُولَدْ الرواية

تلك المذكرات هي لملاكٍ
قد كلَّفه الله بتدوين ما في قلوب البشر.
كان يُدوِّن ما في القلوب
مشفوعًا بكلماتٍ صاردةٍ من قلبه
الذي يبصر ما لا يبصره البشر

كان يوم الأربعاء والجو شتاء. الهواء البارد يلفح البيوت المتراصَّة جنبًا إلى جنبٍ وكأنها تستدفِئ. دخل الملاك إلى الكنيسة باكرًا جدًا في صُحبة آخرين. سجد أمام الهيكل وهو شارعٌ جناحيه في هيئة المصلوب. أنشد التقديسات بنغمة عذبة خفيضة، بعدها جلس في مؤخّرة الكنيسة ليستطلِع قلوب البشر أثناء القُدَّاس.

*القُدَّاس، ما أروعها لحظات لا يُدْرِك البشر أعماقها، ولو انفتحت بصائرهم لبُرْهةٍ، على ذلك الحضور الإلهي الآسر المحاط بجوقات الملائكة، لما احتملوا وهج المجد السمائي.**

بدأ توافُد المُصلِّين إلى الكنيسة، كانوا يدخلون فرادى في هدوءٍ يتماشَى مع سكون الطبيعة النائمة على نغمات الليل، ولم يكن الصباح قد ألقَى بعد، إشارته للضوء، بالحركة فوق تلك البقعة من المسكونة.

لم يستطِعْ المتوافدون طي صفحات العالم قبل الدخول إلى الكنيسة. دخل كلّ منهم بروايته التي يحياها وبخيوط الفكر التي نسجها الزمان على ذهنه. منهم من كان يُلقي بسِرّه في الصلاة طلبًا لعونًا إلهيًّا، ومنهم من اجتذبه سِرّه بعيدًا عن الصلاة، نحو العالم!!

جَلَس الملاك وهو يحمل بيده ريشةً، غمسها في دواة الحبر، وشرع يكتب. كانت الأوامر الإلهيَّة قد صدرت له بأن يُدوِّن ما في قلوب البشر.

قلوب البشر هي معمل الأحلام والآلام، الطموحات والأوهام. خزائن القلب لا يحمل مفتاحها سوى الله. حتّى البشر قد يصعب عليهم النفوذ إلى خزائن قلوبهم حيث جوهرهم الحقيقي. سأكتب، لعلّ البعض يلمح في قلوب أخرين انعكاسًا لما في قلوبهم، فيساعدهم ذلك على الولوج إلى سراديب النفس العميقة الغور.

* الكلمات المدوَّنة بخطٍ مائلٍ هي تعليقات الملاك على ما يراه في قلوب البشر.

كانت قلوب البشر كقطعة من الزجاج الشفاف أمام عيني الملاك، يرى من خلالها دوامات الفكر البشري تنساب وتنساب ما بين العقل والقلب. بعض الأفكار كانت كمياه البحر المتلاطمة المضطربة، والبعض الآخر كان كمياه النهر الساكنة كسكون ليل الصحراء.

دخول المُصلِّين كان يصاحبه دخول آخر لطائفةٍ من الملائكة. كانت الملائكة تقف بجانب المُصلِّين وكأنها تحتضنهم بأجنحتها الممدودة، فهُم موكلين من قِبَل الإرادة العليا لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص. بينما كانت تقف من بعيد، كائناتٌ سوداءٌ شاحبةٌ، قبيحة المنظر والمظهر، يعلو وجوهها صُفرة بلون لهب الجحيم. كانت تحمل في أياديها أقواسًا وسهامًا تُصوِّبها نحو قلوب المتعبِّدين. كانت سهامهم تبلغ مراميها لتصيب بعض القلوب، بينما تمتد دروع النور لتصُدَّ عن أخرين مئات السهام المُطلَقة لكي لا تصيبهم، فقط تُصيب مُطلقيها بخيبة الأمل.

لم يستطِعْ جمع الملائكة حماية الجميع. كان البعض يتوافقون مع أفكارهم الخاطئة ويستمرئونها، فكانت تنبعث من قلوبهم سُحبًا من ظلمةٍ طاردة للنور. كان جَمْعُ الملائكة يبتعدون وَهُمْ في ألمٍ، يشاهدون السهام تخترق تلك القلوب المُسجَّاة في الظلمة، وهم بجرحهم لا يشعرون. كلما ابتعدت الملائكة كلما تقاطرت وتواترت السهام المنجذبة نحو القلوب المظلمة. كان عنفوان الحرب واضحًا، وقسوة تلك الكائنات السوداء باديةً على وجوههم ...

الحياة تعني صراع، هذا هو قدر البشر الذي يراه البعض المأساة العُظمَى للوجود الإنساني، بينما يدركه أخرون طريقًا للتتويج الأبدي في خِدر ملك الخليقة.

لن أبدأ تدوين مشاهداتي من هنا، من الكنيسة، ولكني سأبدأ من تلك الغرفة الصغيرة المُعلَّقة في الطابق الثاني للبناية التي تتوسَّط الشارع ... من هناك سأبدأ...

✣✣✣

فتح عينيه بتثاقلٍ وبطء وكأنهما تُجاذبان يدًا خفيَّة. تمطَّأ على فراشه وهو يُلقي بنظره على الساعة التي كانت تشير عقاربها إلى الخامسة والنصف صباحًا.

نهض مسرعًا وكأنه على موعدٍ مصيري. أمسك بكتاب صلواته وتلَى منه فقرته الصباحيَّة المُحبَّبة:

هَلُمَّ نسجد، هَلُمَّ نسأل المسيح إلهنا.
هَلُمَّ نسجد، هَلُمَّ نطلب من المسيح ملكنا،
هَلُمَّ نسجد، هَلُمَّ نتضرع إلى المسيح مخلصنا...

وعلى ذِكر كلمة السجود كان يجثو على ركبتيه معانقًا الأرض بجبهته في نشاطٍ يحاول أن يقضي به على آثار النوم التي مازالت خيوطها عالقة بذهنه وجسده. بعد أن انتهَى من تلك الصلاة القصيرة، بدأ يرتدي ملابسه على عجلٍ، بينما عيناه كانتا ترقبان حركة العقرب الذي يندفع نحو السادسة، وكأنه أراد أن يستوقف، بنظراته، حركة العقرب حتّى لا يتأخَّر عن موعده. دسَّ أجبيته الصغيرة في جيبه الخلفي بينما خرج قافزًا على درجات السُلَّم الأربعين، إذ كان يقطن الدور الثاني من تلك البناية الصغيرة التي تتوسَّط الشارع.

إنه أندرو البالغ من العمر الثالثة والعشرين، يعمل في مجال التدريس في مدرسةٍ تقع على بُعد محطَّتين من مسكنه.

ترجَّل أندرو الطريق متَّجهًا نحو الكنيسة، فالقُدَّاس يبدأ في السادسة تمامًا. وقد جاوزت السادسة بعدَّة دقائق. كان يردد بعضًا من مزامير صلاة باكر التي يحفظها، إذ كان يحاول حفظ المزامير حتّى تحفظه المزامير، وهو ما كان قد سمعه منذ بضعة أشهر في إحدى عظات البابا يوم الأربعاء. لاحت منارة الكنيسة من فوق بعض البنايات المحيطة بها وكأنها تستقطِب القلوب التائهة في بحار العالم. ابتهج قلبه وشعر بنشوة تتملَّك كيانه، توقف عن ترديد المزامير وبدأ يتمتم؛ السلام للكنيسة بيت الملائكة. كان يُردِّدها العديد من المرات وكأنه يمتص رحيق الكلمات ويتمتع بعسلها في فمه. دخل الكنيسة وهو مطامن الرأس راسمًا علامة الصليب في خشوع.

كانت الكنيسة متوسِّطة الحجم، تسع ما يقرب من مائتي مُصَلِّي. إلاّ إنَّها كانت من الكنائس القديمة التي طالما اختزنت رائحة التاريخ لتمزجها برائحة البخور، وهو ما يَسْكُب في القلب مشاعر يتعذَّر وصفها. الأعمدة المربعة الشكل مزخرفة بتيجانٍ من فوق، بينما يغطيها بعضٌ من وجوه القديسين غير المكتملة، وكأنها تلتمس خيال المصلي لتكتمل فيه. كانت أيقوناتها غير متقنة الرسم مما أضفَى عليها

سحرًا زائدًا. بساطة نقوشها تعود بالذاكرة إلى عصور المسيحيَّة الأولى حين كان المسيحيون يقيمون صلواتهم وليتورجياتهم في السراديب والشقوق الصخريَّة والأماكن غير المأهولة بالسكان هربًا من سيف الاضطهاد الذي كان لا يشفق على بشرٍ ولا حجرٍ.

أطلق أندرو ناظريه ليبحث عن مكانه المفضَّل بجوار العمود الثاني. على جانبه الأيمن كان يقف وكأنه يستلهم منه روحانية عصور ماضية.

كان البخور يملأ الكنيسة وكأنها أصبحت قطعة من السحاب الذي تناثرت فتائله فصنعت رداءً خاصًا لكلِّ مُصَلِّي، بينما كان الخورس ينشد الذكصولوجيات الخاصة برفع بخور باكر كأنه يستحضر بها جمعًا سماويًّا. كان الكاهن لا يزال يطلق سُحُبًا من البخور في أرجاء الكنيسة الخافتة الضوء مُتمْتِمًا ببعض الصلوات أثناء سيره.

كانت وجوه المُصلِّين بها مِسحة من الخشوع، وكأنهم اتفقوا معًا أن يُكوِّنوا أيقونة يطلق فيها الروح ريشته ويخلق منها شهادةً جديدةً لعالمٍ قد تشوَّهت أيقونته واظلمَّت.

سبح أندرو بخياله في مدى روعة تلك الحياة، فالعالم يحيا في ظلمات مكدَّسة وأوهام متراصَّة لا تتحقق ولا تُحقِّق الإنسان. وبدا له أن المقارنة بين عالم الناس وعالم الله غير جائزة بل وجائرة، فالصفاء والعذوبة والسلام الذي يتوغَّل في قلب من يدخل إلى عالم الله يُبدِّد كلَّ ظلمة حاولت أن تصبغ القلب بلونها القاتم. إنها إشراقة نور من نبع النعمة المتوهِّج أبدًا. عالم الله يفتح بصيرتنا على آفاقٍ من الصفاء تُولَد من رَحِم الحق السرمدي الذي يلامس الروح فيُسكِرها ويغيِّبها عن عالم الناس ويجتذبها نحو أنشودة الدهور التي يترنـَّم بها من استغرقوا بكُليتهم في عالم الله.

اختار الكاهن الحَمَل من بين الخبزات الخمس الموضوعة أمامه في الطبق الخوصي، أَمَالَ قارورة الخمر ليلتقط نقطة منها على إبهامه، رشم الخبز بالخمر، ودخل إلى الهيكل.

✻✻✻

منذ عام تقريبًا كان أندرو على موعدٍ مع حدثٍ جَللٍ، صعق كيانه الداخلي، فاستفاق، كأنه كان يَغطُ في نومٍ عميق. كان العالم والشيطان هما بطلا أحلام سُباته.

كان أندرو في رحلةٍ لأحد أديرة برية شيهيت المُقدَّسة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها ديرًا. كان كلُّ شيءٍ جديدًا على ناظريه؛ الصحراء بصفرتها التي تتوهَّج تحت شمس صيف الظهيرة، البنايات القديمة التي يعلوها قباب وأنصاف قباب، الأفق الذي يسبح فيه النظر فلا يلاقي له شطوطًا، ولكن عينيه كانتا متعلِّقتان بالرهبان أكثر من أي شيء آخر بالمكان. وكأنه كان يحاول حَلْ لُغز تلك الحياة بمراقبة حركاتهم وأحاديثهم بل وتعبيرات وجوههم المتباينة.

دخل أندرو الدير الأثري وهو لا يحمل سوى الدهشة من كلّ ما يراه لأول مرة. عيناه زائغتان فى كلّ مكان يدفعهما فضول قاتل لفهم تلك الحياة وسِرَّها.

إن الله أحياناً ما يستثمر فضولكم أيها البشر للمعرفة حتّى يُسقِطكم في فخاخ نعمته ويأسُركم بكلمته ويذيقكم بهجة آسرة قادمة من عوالمٍ أخرى لم تعبر بها المادة لتلوِّثها بمطامع الإنسان. وفي المقابل قد يستخدم الشيطان فضولكم لجذبكم إلى دركات الهاوية السحيقة القرار، فالخطيئة في أغلب الأحيان تبدأ فضولاً وتنتهي قيوداً.

التقَى أندرو مع أحد الأباء الرهبان في الدير لقاءً غيَّر مجرَى ومسرَى حياته. كان الراهب يسير في جلبابه الأسود الرَفال في خفةٍ ولكنها مشوبة بحذر، وكأن خطواته كانت شرحًا لكوامن نفسه، فروحه الوثـّابة تتحسَّب للخطوة قبل لقاءها، فخُطَى الإنسان في الحياة تعني تجاربه وخبراته.

كان الراهب معتادًا على التجوال بعد صلاة الغروب، مُتَّكِئـًا على عصاته الخشبيَّة المهذَّبة بإتقان. وكانت مسيرته اليوميَّة ابتهاليَّة، فالصلاة والابتهال كانا هما رفيقا الدَربْ اليومي من الكنيسة حتّى القلاية. ولم تكن مسيرته إلى القلاية مستقيمة بل كانت دائريَّة تستغرق حوالي نصف الساعة، مع أن قلايته تقع على بُعد دقائق معدودة من الكنيسة. كان يتفنَّن في الاختلاء بذاته حتّى يتسنَّى له ممارسة صلواته وابتهالاته، وبمرور الوقت عرف الأباء نهجه وطباعه فلم يزاحموه في المسير، تاركينه للصلاة.

شدَّ وجه الراهب، أندرو، فوجد نفسه مُنجذبًا ناحيته، فإذ به يلتقيه في منتصف الطريق، بعد دقائق من التردُّد، قضاها بين الإقدام والإحجام.

لم يكن وجه الراهب كتلك الوجوه الناصعة البياض التي يراها في الأيقونات وكأنها مغتسلة في جرنٍ من نور، ولم تكن لحيته طويلة تتهادَى على وقع الهواء يمينًا ويسارًا، ولم يكن طويل القامة مهيبًا .. بل كان قمحي اللون، ذو قوام معتدل يَنُم عن فكر معتدل، ذقنه قصيرة شعثة غير مهذبَّة، تنقسم إلى ثلاثة أقسام بالتساوي بين الأبيض والأسود. أثناء سيره لم يكن يسمح لبصره بالتجوال وإشباع الفضول بمرتادي الطريق من رهبان وزائرين.

التقَى الراهب وأندرو، وسمح الله بأن يكون ذلك اللقاء نقطة بدء لأندرو في عالم الله الذي لم يكن أندرو من مواطنيه بعد. كان الحوار يدور حول القرارات التي يتخذها الإنسان أثناء مسيرته والتي تُحدِّد مساره وخطاه على أرض الغد. لم يكن الراهب كثير الكلام مُعطيًّا الفرصة لأندرو أن يلفظ كلّ ما يجيش بصدره من أفكار وما يصاحبها من انفعالات، فالاصغاء للآخرين يساعدهم على الصفاء، تمامًا كالسحاب الذي يُطلِق المطر وراء العاصفة ليحرِّر الهواء من التراب المُعلَّق به، فيصفو الجو من جديد.

كانت لأندرو أفكار مغلوطة عن الحياة مع الله، مستقاة من مشاهداته الشخصيَّة والتي حَرَصَ الشيطان أن يضع فيها لمسته. من حدَّثوه عن الله برعوا في شرح طبيعة الجحيم والموت والعقوبة، وفي المقابل تباروا في شرح مستلزمات الحياة مع الله من صلوات وأصوام وأسهار وممارسات متواصلة تتلاشَى جميعها إن أخطأ الإنسان ليُلاقي مصير من لم يعرف الله!! فكان قراره الذي شاركه فيه الكثير من أصدقائه على غير اتفاقٍ مسبق، بأن القضية خاسرة وأن كلّ محاولة مع الله ستبوء بالفشل لا محالة، فلِما العناء إن كانت السماء مُحالة هكذا؟؟ ...

بدأ الأب الراهب يشرح له عن الحبّ غير المشروط والغفران غير المحدود والحنو الإلهي والأبوَّة الإلهية وبركات الجهاد ولذَّة الإماتة مستشهدًا بالكتاب؛ قصصٍ وآياتٍ، تارةً، ومن الآباء؛ سِيَرٌ وأقوالٌ، تارةً أخرى. كما لم يغفل الاستشهاد بمعاصرين قد عاينوا وميض النور وشهدوا له.

مَلَكَت كلمات الراهب شِغَاف قلبه، وملأته بفرحٍ هادئٍ وسكونٍ لم يألفه من قبل. وبدأ يتسائل عن الخطوات العمليَّة للطريق. رسم له الراهب ملامح البدايات مُشجِّعًا إياه على مواصلة المسير، وإن بدت غيوم الحروب في أفق الحياة.

كانت تلك الكلمات كفيلةً بإضرام النار في قلبه، وهي النار التي مازالت عالقه بوجدانه حتّى اليوم، بعد مُضي عام تقريبًا، التقَى فيه، الراهب، مرتين فقط.

✠✠✠

هللويا

إن فكر الإنسان يعترف لك يارب

وبقية الفكر تُعيِّد لك

الذبائح والتقدمات، اقبلها إليك.

هللويا

كانت تلك هي التسبحة التي يرددها المُصلِّين في الكنيسة، بينما قد توارَى الخبز خلف الكاهن الذي حمله على يديه متأهِّبًا ليرشمه الثلاث رشومات على مثال الثالوث.

إنَّ ما فقدناه في مسيرتنا في الحياة هو ما نسترجعه حينما يفتقدنا الرب في وقتٍ لا نتوقعه، وفي مكانٍ قد لا نتخيله، بل وبطريقةٍ بعيدة كلّ البُعد عن دورات أحلامنا. تلك كانت أفكار أندرو في تلك اللحظات، والتي توالت وتتابعت وتدفقت على أنغام التسبيح وعلى إيقاع الدُف النحاسي.

إن مسيرة المخلِّص من رَحِم العذراء إلى كوَى السماء، بين ميلاده وصعوده، كان هو يوم افتقادنا من هوَّة آثامنا، ومن طبيعتنا التي مالت للشر، حينما عصت وتمرَّدت، في آدم، على ما نهَى عنه الرب الإله. ورغم أنَّ آلامك يا مخلصي كانت شديدة وثقيلة، كنت ترزح تحت نيرها وحيدًا وأنت لا ترى سوَى لحظة التحرير العظمَى لبشريتك المحبّوبة، إلاّ إنَّك دعوتنا للفرح والابتهاج بيوم الافتقاد. ولكن، كيف نمزج أفراحنا بآلامك؟! أوترانا تجرَّدنا من أحاسيس البشر حينما نرى الدماء المنسكبة ونفرح بها!! أو ليس انسكاب الدماء يعني انسكاب الحياة .. أي الموت، أونبتهج بالموت؟! .

كيف يمتزج الفرح بالألم؟ إنه سِرٌّ يستعصي على العالم، فالفرح والألم نقيضان، خطَّان متوازيان لا يلتقيان، ولكنهما، في شخصك، ألتقيا، تآلفا وتعانقا. إنه سِرّ الدموع المنسكبة من قلب ينتشي بالفرح والبهجة.

فقط حينما ندخل إلى شخصك ونعبر إلى دائرة حضورك يمكننا أن نتذوق تلك المعرفة ونحياها.

استغرق أندرو في الشكر على كلّ العطايا التي أفاضها الرب عليه. ارتفع شكره بينما تساقطت دمعتان من عينيه فخطَّت وجنتاه بخطين رفيعين، حَرَصَ أن يزيلهما على الفور قبل أن يراهما أحد.

آه .. لقد تذوقت سِرًّا من أسرار النور المُنبعِث من خلف حجر القبر. إن دمعتيَّ اللَّتين سكبتهما كانتا ردَّك على حيرة قلبي المنهك والمنهمك في الصلاة.

إنها لحظات تلقي ببهجةٍ من نوعٍ خاصٍ على السماء، تلك التي يبصر فيها البشر، الحق، ويتذوقوه. السماء ليست ما فوق رؤوس البشر ولكنها داخلهم، حبيسةً، تريد الإطلاق، ولا شيء يُحرِّر سماء القلب سوى النعمة المتشابكة الأيدي مع رغبات البشر. حينها يبدأ تدفُّق الإعلانات الإلهيَّة عن العمل الإلهي العظيم في الكون والخليقة. وحينما يبدأ الإنسان في وطء أرض الإعلانات الإلهيَّة، يحمل هويَّة جديدة كابنٍ لله بالنعمة، الابن الذي يرى ويعاين مجد الآب، كوميض، يتكثَّف ليصير مع الأيام سيلاً من نور.

✣✣✣

فلستم إذاً بعد غرباء ونزلاء

بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله

كان البولس يُقرأ من الرسالة إلى أهل فيلبي، وإذ بسيِّدة مُسِنَّة تدخل الكنيسة. توجهت ببطء إلى إحدى الأيقونات القائمة في الثلث الخلفي من الكنيسة. كانت حركة ساقيها متثاقلة أو بالأحرى مثقَّلة بالمرض. أخذت شمعة من الصندوق الصغير الموجود عن يسار الأيقونة. مَدَّتها إلى إحدى الشموع التي قاربت فتيلتها على الانطفاء، وبدأ خيطٌ من الدخان يتصاعد منها إيذانًا بنهاية وجودها في عالم الأيقونة. انتقل اللهب إلى الشمعة التي في يد السيدة التي رفعتها أمام الأيقونة وهي تُتمْتِم ببعض الصلوات الصامتة والحارة في نفس الوقت، كانت الشمعة تعلو في يديها مع حرارة الطلبة. شَرَعَت بعدها في حفر مكانًا لها أمام الأيقونة، التي بَدَت أنها استنارت أمام اللهب المتراقص للشمعة، وبدأت المرأة تصلي ..

إن حياتكم أيها البشر أشبه بشمعة تبدأ بالتوهُّج ونثر الضياء وتنتهي بالانطفاء في لفائف الدخن. ولكن يبقَى السؤال الأهمّ: هل هي لهب ينتقل إلى آخرين أم أنه ينزوي وحيدًا حتّى ينطفِئ دون أن يبعث بذكراه للغد!!

كانت الأيقونة المحبّبة لديها تلك التي يظهر فيها مارجرجس ممتطيًا جواده وهو حاملٌ لحربةٍ بيمناه يُصوِّبها إلى كائنٍ أسود اللون في أسفل الأيقونة، بينما تقف فتاةٌ ملائكية الوجه في الخلف تترقب نتائج المعركة ..

هل كانت المرأة العجوز تستلهم روح النصرة من الأيقونة؟! أم أنها كانت تترجَّى ذلك الفارس المغوار أن يتدخل لحمايتها من كائنات الظلمة؟!. لم يتبيَّن الملاك ..

إنارة الشموع أمام الأيقونات ليست سوى إنارة لشموع السكينة في قلوبكم حينما تبدأون في تجاذب أطراف الحديث مع ذاك الشخص الواقف في غطاءٍ من ألوان وخطوط. أوليست الأيقونات هي نوافذ على ملكوت الله فتحتها لكم الكنيسة، لتروا وتستجلوا طبيعة مواطني تلك المملكة السماوية. الأيقونة في خيال البعض جهلٌ ووهمٌ، بينما يراها من قد حطَّ على قلوبهم طائر الضياء الدهري، شخوصًا يحيون أبدًا في رداءٍ من مجد، لكم فيه أيها البشر مكانٌ إن اخترقت بصائركم أبصاركم لتروا ما لم تره عين. إنها البصيرة التي تُحلِّق بالنفس فوق طبقات العالم المنظور والمأجور للمنطق، الذي ألَّفه إبليس روايةً، ليخدَع بها سكانه وعابريه.

بدت المرأة في صلاتها أنها تصارع في صمت، نظراتها المفعمة ألمًا ورجاءً بآنٍ كانت سلاحها في ذلك الصراع. فألم الحياة الذي يعتصرنا لا يداويه سوَى رجاءً في يدٍ تقدر أن تنتشلنا من مياهها الخطرة. والصلاة كثيرًا ما تبدأ صرخة ألمٍ وتنتهي لحنًا للرجاء.

بينما لم تكن صلاة تلك المرأة سوى نظرات يترقرق منها الدمع فيرسم صورة الأيقونة على مدامعها التي تعكس لهب الشمعة المتراقصة الضياء. صلاتها كانت قلبًا خفَّاقًا وعينًا يبرق في سمائها الشوق والرجاء.

إن صلاتنا أحيانًا ليست سوَى ما نضمره في نفوسنا وتُطلِقه قلوبنا نظرات وأنـــَّات قبل أن تتكوَّن عبارات وكلمات.

رسمت المرأة صليبًا كبيرًا على نفسها في تقوَى وورع. وذهبت لتجد لها مكانًا في الكنيسة التي مازال يعلوها سُحُبْ البخور.

كانت طلبة المرأة الوحيدة أن يهتدي ابنها إلى طريق الخلاص، إذ كانت ترى العالم ينال منه مآربه، ويبني مستوطنات للآثام في قلبه المُخدَّر بفتوَّة الشباب. كان إلحاح المرأة عجيبًا حتّى حسبتها تجسيدًا جديدًا للمرأة التي كانت تطرق على باب القاضي الظالم حتّى تنال ما تريد؛ الإنصاف. كان إنصاف المرأة العجوز هو رؤية ابنها في أحضان المخلِّص. شهوة لا تطمح في شيءٍ آخر بعدها.

لم تكن طلبتها جافة، بل كانت مبللة بدموعٍ حارةٍ يبدو أنها عرفت طريقها المعتاد وسط تجاعيد وجهها المُضِئ الساطع بطيبة تأسر أعتَى القلوب وأشرسها.

لقد استقطبت دموع المرأة، الملائكة، من كلّ صوبٍ وحدبٍ. كانوا يحملون على أجنحتهم ترياقًا سماويًا مسُّوا به قلب المرأة المتوجِّع، فتملَّكته راحة وسكينة واطمئنان لم تدرْ مبعثهم. لم تكن السماء لتتجاهل مثل تلك الطلبة، ولم يكن الملك السماوي ليصمت أمام تلك الدموع ...

✻✻✻

كان ابنها في الآونة الأخيرة قد تغيَّرت طباعه، وعرف التمرُّد طريقه إلى كلماته وقسمات وجهه. كلما حاولت والدته نُصحه كلما تعصَّب وانفعل وافتعل مشاكل معها، تنتهي ـ في الأغلب ـ بكلماتٍ جارحةٍ. لم يكن يحتمل عطفها الذي يُشعِره بالطفولة. كان تمرُّده بمثابة إعلانًا بالاستقلال وعدم الاحتياج لارشادٍ من عصرٍ قد ولَّى وفات. لم تكن لحواراتهم قواسم مشتركة؛ فالأم تبحث في ابنها عن الخضوع والاتزان والتعقُّل والتديُّن ... بينما كان يبحث هو عن اللذَّة واللهو والعبث مع أصدقاءٍ تعاهدوا على قتل الوقت فيما لا يفيد.

يارب قُد ابني إلى طريق الخلاص كما فعلت بمراحمك مع بولس الذي تعدَّى على كنيستك واضطهد اسمك القدوس. لم تمنع مراحمك عنه بل قبلته وأرسلته ليعمل في كرمك. افتقد ابني الذي بجهلٍ أحبّ العالم الذي يجتذب مَنْ هُمْ في سنه. مراحمك لا تزول ونعمتك لا تُنْقِصْها الأيام ولا السنين أيها المسيح إلهنا.

كانت تلك الكلمات هي طلبة المرأة المُسِنَّة، تطلقها في توجُّع، محمولةً على جناحي إيمان وثقة في الاستجابة.

في تلك الأثناء وقف الكاهن أمام المذبح حاملاً بيمناه المجمرة المختفية وسط البخور، وبدأ يصلي قائلاً:

يارب المعرفة ورازق الحكمة.

الذي يكشف الأعماق من الظلمة ...

الذي من قِبَل صلاحك،

دعوت بولس ـ هذا الذي كان طارداً زمانـــًا ـ إناءً مختاراً.

وبهذا سُرِرت أن يكون رسولاً مدعوًّا

وكارزاً بانجيل ملكوتك أيها المسيح إلهنا ..

وبينما كان الكاهن يدور حول المذبح ويبخِّر، كانت طلبة المرأة تدور وتدور وتتصاعد مع رائحة البخور ...

✠✠✠

الكاثوليكون من رسالة القديس يعقوب، بركاته على جميعنا أمين:

احسبوه كلّ فرحٍ يا إخوتي

حينما تقعون في تجاربٍ متنوعةٍ.

عالمين أن امتحان إيمانكم يُنْشِئ صبرًا.

وأما الصبر فليكن له عملٌ تامٌ

لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء ...

كانت تلك الكلمات هي الحجر الذي ألقاه الشماس بصوته الرخيم وقراءته المنضبطة الهادئة الخفيضة على ذلك الشاب الذي يجلس في الصف الأوسط المواجِه للهيكل. أكرم شابٌ في النصف الثاني من العشرينات، منمقٌ في ملبسه وإن بدا فكره شاردًا وهو عاقدٌ يديه على صدره. من عينيه تلمح اهيتاجًا فكريًّا يعصِف به. لقد جاء للكنيسة اليوم والتي لم تكن يومًا في قائمة أولوياته، ليُصلي، كما أشار عليه البعض، ولكن سبب مجيئه الحقيقي هو أنه لا يستشعر مخرجًا لمشاكله في العمل، إذ أصبح على وشك ترك العمل بسبب خلافاته المستمرة مع رؤسائه، وحين تسمع منه وجه القصة تتعاطف، ولكن لكلّ قصةٍ وجه آخر.

لم يكن ذلك الشاب معنيًّا بما يجري من طقوس داخل الكنيسة، ولم يكلف نفسه عناء متابعة ما يجري في القُدَّاس.

كانت الأفكار التي تتوالَى كموج البحر في رأسه لا تخرج عن نطاق المُنغِّصات التي يلقاها في العمل، وقد استنفذ التفكير كلّ طاقته الذهنيَّة فلم يرَى في الحياة سوى قَدَرٍ أسودٍ يستهدفه ويتحسَّس نجاحاته وأفراحه ليقضي عليها وهي في قِماط ولادتها، وهو يُسخِّر رؤساءه في العمل لمباشرة هذا الأمر!!

كيف يتعامل مع مديره الذي يتفنَّن في السخرية منه وتعنيفه في كلّ وقتٍ وفي كلّ مناسبةٍ. وبالرغم من محاولاته الفعليَّة للاجتهاد في العمل، إلاّ إنَّ كلمات الشكر والعرفان والتشجيع لم يفتر فم مديره عنها ولو بطريق الخطأ. والأدهَى من ذلك هو الشعور الذي يعتريه بأنه يدبِّر له مكيدة، وهو ما لمحه يتسلَّل من خلف ابتساماته الخبيثة الصفراء. فهل يستقيل من العمل ويتخلَّص من هذه الضغوط التي تقضُّ مضجعه أم يحتمل ويصبر حتّى يرسل الله حلاً إلهيًّا لتلك المشكلة. لا يعرف ماذا يفعل؟؟

إن الله كثيرًا ما يسمح للضوائق أن تجد لها مكانًا في نفوسكم أنتم يا بني البشر حتّى يستعيدكم مرة أخرى. والعجب أنكم تتبرمون من الضيقة مع أنها علامة حبّ وافتقاد إلهي لنفوسكم اللاهية في عالم الموتى واللاهثة وراء حِطام الدنيا البرَّاق.

إن خطواتكم يا بني البشر لا تألف طريق الله إلاّ حينما تُوصَد أمام وجوهكم كلّ الأبواب التي كانت مُشرَعة قبلاً. يبقَى الباب الإلهي كآخر ملاذ للنفس. تطرقونه طلبًا لعونٍ لا طلبًا للحياة. والله يُدرِك تمامًا مطلبكم الزمني الذي من أجله تقرعون بابه، ولكنه قبل أن يستجيب يضع في قلوبكم قطرةً من ماء الحياة لتتذوقوا ما لم تتذوقوه قبلاً، فيجتذبكم رويدًا رويدًا إلى أنهار نعمته لترتموا هناك وتغتسلوا ...

لم يَعرِف أكرم كيف يُشارِك الجمع في الصلاة بل كان صامتًا يحاول أن يستجمع أشلاء فكره ولو للحظات ليضرع فيها ويلتمس من الله عونًا وحلاً. كانت الأفكار تلاحقه كصفعات متتالية تكاد تفقده اتزانه.

إن الله ليس كما تتوهمونه اليوم؛ كائنًا آليًّا يتحرَّك وفق أوامر ورغبات البشر!! وكلّ رغبات البشر أسيرة دائرة الحاضر، تريد أن تُجمِّل نقوشه بماء الذهب ومتانة السلطة وجمال اللذَّة.

أنتم تعملون من أجل حياة خاطفة لا تتعدَّى في معظم الأحوال الستين. تريدون أن تُخلِّدوا اليوم وتعتصرونه لترتشفون منه مشروب الهناء والسعادة التي لا يشوبها مرارة، متناسين أن الضيقة ومرارتها قد تكون سببًا مباشرًا لتذوُّق ماء الحياة الذي لا يعطش شاربوه.

مرَّ الكاهن بجواره مُطلِقًا بخور كثيف وكأنه سُحُبْ الشتاء. لم يسمع أكرم من الصلوات التي كان يُتمْتِم بها الكاهن سوى عبارته الأخيرة:

من قِبَل صليبه وقيامته المقدسة

ردَّ الإنسان مرة أخرى إلى الفردوس

✣✣✣

وإنما إن كان أحدكم تعوزه حكمة فليطلب من الله الذي يُعطي الجميع بسخاءٍ ولا يُعيِّر، فسيُعطي له.

ولكن ليطلب بإيمانٍ غير مرتاب البتَّة،

لأن المرتاب يشبه موجًا من البحر تخبطه الريح وتدفعه.

فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئًا من عند الرب.

رجلٌ ذو رأيين هو متقلقل في جميع طرقه.

لم يكن العمل وحده هو الذي يؤرق أكرم إذ أن حياته الزوجيَّة تمُرّ بمنعطف خطير جعلها هشَّة للغاية مع أنها أمام الجميع متماسكة بروابط التفاهم الظاهري!!

كان خيط التلاقي بينه وبين زوجته ذائبًا وكأنهما جزيرتان منفصلتان لا تعبُر بينهما مراكب، ولا تُرفع في بحار فرقتهما أشرعةً. كان لكلٍّ منهما لغته واحتياجاته وآماله التي لا تتجسَّد في الطرف الآخر. لم يكن الأمر هكذا في بادِئ الأمر؛ فمشاعرهما المتأجِّجة ألقت بعُصابةٍ على ناظريهما فلم يروا سوَى ما أرادوا أن يرونه حتّى ارتبطا وسقطت العُصابتين وتفتَّحت الأعين على الواقع.

كان العمل والبيت كشقي رَحَى يعتصران أكرم من الداخل. الحياة التي بدت ورديَّة منذ عِدَّة سنوات كانت أشبه بحلمٍ لم يَدُم طويلاً. لم تكن خلافاتهما الزوجيَّة لعواظم الأمور ولكن لعدم التوافق الفكري بينهما، مما جعل الحياة بينهما أشبه بلوحةٍ رماديَّةٍ باهتةٍ بلا ألوان. تمنَّى لو يرجع به الزمن ليبقَى بلا زواج .. يحيا الحرية. كانت تلك الأفكار لها مثيل في رأسها، رغم أنهما لم يتصارحا بها قبلاً.

أنتم أيها البشر لا تحتملون نير الشركة، وما الزواج إلاّ شركةٌ لا يملك فيها أحدكم القرار منفرداً. توهمتم الزواج كما صدَّرته لكم الأفلام السابحة في الرومانسيَّة؛ مشاعر متدفقة مُطيَّبة بعبق اللذَّة والسعادة. اختزلتم الحبّ في أنشودة ونظرة وايماءة وكلمة محمولة بتنهدات الشوق، وتناسيتم أن الحبّ هو التزام بالآخر كما هو .. التزام يقُض مضاجع ذاتيتكم .. التزام قائم على الاصغاء والاحتواء والصبر والتنازل. ركضتم وراء السراب والوهم والخداع ورفضتم الواقع العاقل الذي يصرخ فيكم بالتروي. لم يكن الله حاضرًا في زواجكم إذ تركتموه عند المذبح، فتأجَّجت صراعاتكم وتناثرت أشلاء قلوبكم التي جُرِحت بكلمات الآخر، ولم تجد بلسمًا إلهيًا لمداواتها. لم تُكرِّسوا مذبحًا للرب في مخادعكم، فاستوطنها الشيطان.

أنتم أيها البشر كثيرًا ما تتلفعون بالوهم ثم تئنون من لفحات شمس الظهيرة!!

ما الذي أفعله ههنا ... أصدقائي في الخارج سيذهبون ليُكمِلوا مباراة الأمس وأنا هنا أحضر القُدَّاس!! يمكنني أن أذهب الآن وأعود لأحضر يوم الأحد أو الجمعة القادمين، فأكون بذلك أرضيت الله وأشبعت رغبتي في اللحاق بأصدقائي ومشاركتهم في اللعب. ولكن خادمي المُرابض على الباب كيف أهرب منه؟ سوف يسألني بالتأكيد عن وجهتي، ماذا سأقول له؟ وإن تسلَّلت في غفلةٍ منه سيعرف بغيابي، فلقد اصطحبني من المنزل لحضور القُدَّاس، وإن تفلَّت منه سيكون جزائي التعنيف والتبكيت والحرمان من التردُّد على النادي طوال الأسبوع ... يا إلهي ماذا أفعل؟؟

إنها الأفكار التي تدور برأس مينا، الحامل في جعبته أربعة عشر عامًا، مع أنه قد دخل لتوَّه إلى الكنيسة، إلاّ إنَّك تستشعر أن يدًا قد دفعته رغمًا عنه. هناك قوةٌ من الخارج تجتذبه كمغناطيس. تراه متوتِّرًا كثير الحركة، دائم الالتفات إلى الوراء، إلى باب الكنيسة، وكأنه ينتظر أن يأتي من ينجده من القُدَّاس ويحرِّره من الساعتين المقبلتين اللتين ستحرمانه من اللحاق بالمباراة. كانت صلاته التي كرَّرها مرارًا: يارب إن سمحت لي بالخروج واللحاق بالمبارة أعدك بالحضور يوم الجمعة باكرًا جدًا للمشاركة في القُدَّاس ...

المراهقين في مقتبل عمرهم لا يحتملون قيود المفروض والواجب، يريدون أن يكونوا أحرارًا من النصائح التي يلقيها عليهم الكبار من منابر خبراتهم. لا يستطيعون وعي التوازن التي تتطلبه الحياة بين المرح والجد. قاعدتهم الذهبية أن الممنوع مرغوب، والمنهي عنه محبّوب. الكنيسة بالنسبة لهم قيدًا على حريتهم، يتحملونه أحيانًا على مضض، ويتنصلون منه كثيرًا. والله يتفهَّم طبائعهم المتقلِّبة وتفكيرهم غير الناضج وغير المكتمل، ويصبر، ولا يتوقف عن محبّتهم. بينما يلقي بعض الخدَّام عليهم بويلات اللعنة، ويضعون حرومًا من بهجة الألعاب لمن لا يلتزمون بالتواجد في القُدَّاسات والاجتماعات!! وهم بذلك يُحوِّلون الصلوات الكنسيَّة إلى أثقال يختزنها ضمير المراهقين اللَّبِن

ويجسِّدها قناعات تلاحقهم طوال حياتهم، مَفَادَها أن الطريق الإلهي ثِقَلاً مُرهِّقًا لا متعة فيه ولا بهجة!!

آه .. ما أكثر النفوس التي تشوَّهت بسبب التعاليم والأفكار الخاطئة بالرغم من حسن النوايا. وأنتم أيها البشر تعتقدون أنكم تعملون من أجل الله بينما الله يصرخ فيكم بأن تصبروا. دوركم أن تلقوا ببذار البهجة والحبّ التي جاء بها المسيح للبشرية، على النفوس التي تتكوَّن، وتتركون الحصاد لوقت الحصاد. ولكن يعنُّ عليكم ألاّ تروا ثمار عملكم فتفسدون العمل بإلحاحكم، وتُعمِلون المناجل في نـَبْتاتٍ صغار لم تحتضن الأرض جذورها بعد.

تعتقدون أن بيت الصلاة لا يحتمل العبث الطفولي لمن لم يدركوا قامة المعارف الإيمانيَّة بعد، وتتناسون أن يسوع كان يطالب تلاميذه ألاّ يمنعوا الصغار عن حضنه المتسع. والصغير هو من لم يتكمَّل في الفهم والخبرة، ولم يتذوق ثمار العبادة، فلا عجب إن هرب منها.

لم يستطع مينا التغلُّب على أفكاره التي تدفعه للخروج دفعًا. انتهز فرصة انشغال خادمه بآخرٍ، دلف إلى الخارج متسللاً وكأنه فأرًا سنحت له الفرصة للهرب من المصيدة.

بدأ يعدو ليلحق بزملائه في الملعب، وحينما وصل هناك لم يجد أحد. عرف من أحد أصدقائه أن المباراة أُلغيت اليوم وسيتم استئنافها يوم الجمعة القادم. شرد فكره في الوعد الذي وعد به الله في الكنيسة بأنه سوف يحضر القُدَّاس يوم الجمعة بدلاً من اليوم. بدأ يفهم كيف أراد الشيطان أن يُخرِجه من الكنيسة ليحرمه من القُدَّاس. أدرك أن وعده كان مشورةً من قِبَل الشيطان ولم يكن إلهيًّا. عاد إلى الكنيسة ملتفًّا برداء الندم والخجل من الله. اتَّخذ قرارًا بحضور قُدَّاس إضافي يوم الجمعة مهما كلَّفه الأمر، حتّى لو أقيمت المباراة بالفعل. ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس، كانت تلك هي الآية التي قرأها صباحًا في الإنجيل قبل أن يعرج على الكنيسة.

إن الله له طرق أخرى في توصيل الحقائق لصغاره، أو بالأحرى توصيلهم إلى الحقائق. إنه يريد أن يشكِّل قناعاتهم رويدًا رويدًا حتّى يكون إيمانهم مبنيًّا على صخرٍ صلدٍ يستطيع الصمود أمام عصف

الحياة ورعدها. بينما القناعات المتولِّدة من الأذن هي قناعات رمليَّة هشَّة. وللأسف فإن قناعات الأذن هي حال السواد الأعظم.

من مذكرات ملاك النسخة الإلكترونية

وكانوا كلّ يوم يواظبون في الهيكل بنفسٍ واحدةٍ

واذ هم يكسرون الخبز في البيوت

كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب.

مسبِّحين الله ولهم نعمة لدَى جميع الشعب

وكان الرب كلّ يوم يضم إلى الكنيسة الذين يخلصون

تلك هي الكلمات المُختارة من الإبركسيس التي قرأها ماهر الشماس، بعد أن شارك في مردِّ الإبركسيس بصوته الجهوري الذي يُميِّزه عمَّن حوله، أو بالأحرَى الذي يُميَّز به نفسه عمَّن حوله. ماهر، الشماس الذي لا يتغيَّب عن القُدَّاسات، هو رجلٌ في العقد الرابع من عمره، قصير القامة، ممتلِئ، يسير وكأنه يتأرجح، بينما يداه تتحركان مع خطواته وكأنهما جناحين لحفظ الاتزان. كان كثير الحركة ما بين الخورس والهيكل وكأنه منوطٌ بحِفظ انتظام العبادة. عند بدء اللحن تراه وقد وجد لنفسه مكانًا في الصف الأول من الخورس بالقرب من الميكروفون. مع انتهاء كلّ لحنٍ يُرسِل ابتسامةً مشفوعةً بايماءةٍ إلى المعلِّم وكأنه يتلقَّى منه المديح ويرسل له الشكر في المقابل.

إن الكثيرين ممَّن تضُمهم الكنائس بين جدرانها مُتغرِّبون داخلها. يبحثون عن ذواتهم في خدمةٍ أو عبادةٍ يلملمون بها نظرات الاعجاب من الآخرين. يدخلون ويخرجون خاليي الوفاض، لم تمتلِئ مصابيحم من زيت الصلاة ولم تشتعل فتائلها من نيران الروح.

منذ بضعة أسابيع كان يقود الكنيسة في قُدَّاس الأحد الثاني من كيهك، وقد تهيَّأ لإنشاد المزمور أثناء توزيع الأسرار. حالما بدأ، شاركه أحد الشمامسة الشباب، الترتيل، تبرَّم في داخله، تعمَّد إطالة اللحن حتّى يُفقِده القدرة على مشاركته، إلاّ إنَّ الشماس الآخر كان يتوقَّف للحظة ثم يتابع الترتيل محاولاً مرافقته في اللحن. في منتصف اللحن أخطأ الشماس وتحوَّل إلى لحنٍ آخر، فَقَدَ ماهر القدرة على

متابعة اللحن، توقَّف الترتيل حتّى تدخَّل المعلِّم لضبط اللحن من جديد. اهتاج ماهر وبدأ يُعنِّف الشماس الشاب في غضبٍ هادرٍ. كان المشهد، الذي دارت أحداثه في الهيكل، على مرأَى ومسْمَع الشعب. تحيَّروا من غضبٍ وجد له مكانًا أمام الرب الوديع المُقدَّم على المذبح.

من ذلك الوقت لم يطأ الشماس الشاب الكنيسة مرّة أخرى، وقد تحوَّل إلى إحدى الكنائس الكاريزماتيَّة التي احتضنته وأعادت له كبرياءه المجروح.

إن هناك فصلاً بين فهم الليتورجيا وعيشها في حياتكم أنتم أيها المترددون على الكنائس. مِنْكم من ينهمك في تفاصيل الحركات الطقسية ويُتابع بدقة هزّات الألحان الخارجة من الخورس العلوي دون أن يستلقي أمام الله في صلاة وتضرُّع حقيقي. وأخرون لا يلقون بالاً لما تستهدفه النصوص والكلمات والحركات الليتورجيَّة وكأنها لا تعنيهم. يطلقون طلباتهم سريعًا كواجبٍ ثقيل ثم لا يلبثون أن يعتريهم الملل. فطلباتهم لا تتعدَّى عِدَّة دقائق من زمن العبادة وإن تكرَّرت مرارًا، فإذ بهم ينخرطون من جديد في سِرْب الفكر الشارد خارجًا، في العالم وأحداثه.

كان هناك بعضٌ من الشباب في الكنيسة قد رفعوا راية التمرُّد على الألحان الكنسية مطالبين بالتغيير!! انبرى لهم بعض الخدَّام بعنفوانٍ لم يُغيِّر من قناعات الشباب بل زادهم عنادًا وتمسُّكًا بآرائهم. أراد الشباب أن يطبِّقوا قيم الحداثة والتغيير على العبادة. النموذج الغربي للترتيل كان هو النمط الذي طالما اجتذبهم. أحبّوا طريقة الحياة الغربية فأرادوا [غرْبَنَة] العبادة لتتماشَى مع واقعهم الجديد. ولكن، هل يجب أن تخضع العبادة للتقلبات الثقافية والأنماط السائدة في المجتمعات؟! وهل يجب خلق نمط تعبدي حسب الأهواء الفردية المُتعدِّدة والمتباينة؟!

الكثير من مؤمني اليوم يرون في الليتورجيا إرث ثقافي عَفَّى عليه الزمن، لا يُلائم عصر السرعة اللاهث وراء كلّ ما هو جديد وفريد. وقد اكتفَى البعض بحضور حفلات الترنُّم والتسبيح المنظوم على أنغام وألحان معاصرة. وهي ـ كما يقولون ـ تلمس المشاعر وتُحرِّك الدموع المُتحجرة في المآقي.

ولكن، هل تستهدف العبادة تحريك مياه المشاعر الآسنة فقط أم تتطلَّع لتغيير وجهة الحياة برُمتها وإعادة توجيهها نحو قِيَم الملكوت الأبدي. فالغناء يلمَس المشاعر ونظمْ الشعر يلمَس المشاعر والكلمة

الدافئة تلمَس المشاعر والا بتسامة الرائقة تلمَس المشاعر، ولكن هل تحريك المشاعر هو مبتغَى الله أم مبتغاكم أنتم؟!

تختزلون جوهركم أيها البشر في المشاعر مع أن لكم عقول تريد أن تتصالح أفكارها، وقلوب تريد أن تنعم بالسكينة، وأجساد تريد أن ترتعش من مِسْحة النور التي تطال كلاً من عقولكم وقلوبكم. ما بين الاستشعار والتعقُّل يجب أن تحيون ...

لم يكن الشاب الذي انضمَّ حديثـًا لإحدى الكنائس الكاريزماتيَّة المجاورة، أحد مناهضي العبادة الكنسية. بل على العكس من ذلك، كان كثير التأمُّل في النصوص الليتورجيَّة في محاولة لربطها باللحن وإيقاعه، وهو ما تشهد له الملاحظات التي كان يُدوِّنها في هوامش كتاب خدمة الشماس الخاص به.

بينما لم يكن ماهر يُدرِك سوى أنه، بما فعله، يخدم الله ويحافظ على ترتيب البيعة وتناسق العبادة حتّى لو اضطر إلى استخدم سياط الغضب؛ ألم يفعل المسيح ذلك؟!! تلك كانت حُجته. لم يكن الأخرون في قائمة أولوياته. لم يشغله كثيرًا غياب الشماس الشاب قدر ما كان يشغله جمال الأداء اللحني في الصلوات. حينما سمع أنه انضمَّ إلى إحدَى الكنائس الكاريزماتيَّة، شرع يقول أنه كان على عِلم بتوجهاته الغريبة عن الكنيسة وروحها الأصيلة!! وحينما كان يجادله البعض بأنه كان من أبناء الكنيسة منذ نعومة أظافره، كان يجيبهم، مقتطعًا من الكتاب ما جاء على لسان القديس يوحنا، فيقول: « منَّا خرجوا، لكنهم لم يكونوا منَّا، لأنهم لو كانوا منَّا، لبقوا معنا، لكن ليظهروا أنهم ليسوا جميعهم منَّا ». بات ضميره مستريحًا لقناعته وبات الأخرون قانعون بعدم انتماء الشاب للكنيسة!!

آه .. ما أكثر ضحاياكم أنتم يا من ترتدون عباءة الخدمة والمعرفة وأنتم لا تخدمون سوى ذواتكم. ما أكثر جرحاكم أنتم يا من أهدرتم الاشتياقات البكر التي تسكن قلوب الشباب متوهمين أنكم غيورون على بيت الرب وعلى عبادة الرب. أردتم أن تختزلوا الكنيسة في فكركم الضيق وأُفقكم المُحاط بأسوار قناعاتكم الذاتيَّة. غاب عنكم الرب الذي تسبِّحونه، فتمسكتم بتسابيحٍ لمن لا تعرفونه. ألقيتم بقيودٍ على العبادة الرائعة والتسابيح المنظومة على قيثارة الروح، حتّى نفَّرتم المتعبدين من أنغام وألحان، إن اقترنت بالصلاة، أنبتت للمصلي أجنحة يُحلِّق بها في أجواء الأبديَّة. منعتم

الداخلين إلى محضر الله ووقفتم خارجًا تسنون قوانين وقواعد وأنظمة لم تُختَم بخاتم الحبّ الإلهي، فصارت أسوارًا فاصلة تحجب الله!!

دخل الكنيسة أثناء قراءة الإنجيل. كان الكاهن يُبخِّر أمام المنجلية، فيتصاعد من مجمرته خيوطًا حريريَّة من البخور يخترقها شعاعٌ نورٍ ينسكب من طاقةٍ علويَّة يُشكِّل هالةً على رؤوس الواقفين قبالة المنجليَّة. لم يُفرِّق الضياء المُنْهَمِر بين العقول المتأمِّلة في الكلمة المنبعثة من قلب الإنجيل، وبين العقول الشاردة في كلمات العالم ومجاذباته.

إنه عم فوزي، رجلٌ طاعنٌ في السن اعتاد الصلاة في قُدَّاس الأربعاء، لهدوئه. وقف مستندًا بظهره المنحني على الحائط وكأنه يُلقي عليه بسنيه السبعين، فكلاهما يحمل تاريخًا هذا مقداره.

كان منشغل البال واجم الفكر إذ أنه في الآونة الأخيرة قد سمع مجاذبات ومشاحنات بين ابنه وزوجته بسبب إقامته معهم. إلى أين أذهب؟؟ كان هذا هو السؤال الذي يلاحقه طيلة الشهرين الماضيين.

كان ابنه الكبير قد هاجر منذ عدَّة أعوام وقد عَرَضَ عليه أن يبدأ في تجهيز الورق له، إلاّ إنَّه بعد أن استقر به المقام هناك نسَى وعده. لم يكن عم فوزي ليغادر مصر على أيِّ حال، إلاّ إنَّ اهتمام الآخرين قد يكون أهم في بعض الأحيان من أعمالهم.

✣✣✣

فلا تهتموا للغد

لأن الغد يهتم بما لنفسه

يكفي اليوم شره ... والمجد لله دائمًا

لم تكن لتعبر تلك الكلمات دون أن تستوقف أفكار عم فوزي الشاردة. كانت كلمات الإنجيل التي يُطْلِقها الشماس مُرتَّلة، تحف بالقلوب لتُليِّنها. مِنْ القلوب ما قد لان وخضع لصولجان الكلمة، ومنها ما تحجَّر أمام الكلمة وانغلق وبقَى يطارد أوهامه الذاتيَّة.

حياة عم فوزي لم تكن يسيرة. كانت جعبة ماضيه زاخرة بالحوادث والخبرات التي أطْلَق بها الألم مِشرطه مِرارًا. لم يكن غده ليحمل له من جرعات الألم أكثر ممَّا حمل ماضيه، إلاّ إنَّ تقدُّم العمر به جعله يستشعر أنه أصبح ثِقلاً على ابنه وزوجته. فلا يوجد أقسَى على الإنسان من شعوره بأنه غير مرغوب. كان يحاول البحث عن بدائل حتّى أرهقه التفكير وأخذ منه الجهد كلَّ مأخذ.

كلمات الإنجيل الواضحة زادت من حيرته. إن شَرَّ اليوم يكمن في التفكُّر في الغد ومحاولة استشرافه. أويوجد شَرٌّ أقصَى من الجلوس في ترقُّب لمفاجآت الغد التي قد تُصيِّر الحياة، كومةً من رماد!! هكذا فكَّر، بل هكذا عصفت به الظنون والخواطر ..

من يضعون حياتهم بين يدي الرب لا ينشغلون بالغد لأن الغد سيحمل من الأحداث ما يوافق عليه الرب ويطلق عليه توقيعه. الغد مِلك للرب، للرب وحده. أنتم أيها البشر تريدون أن تُؤمِّنوا الغد، تعتصرون أذهانكم بحثًا عن حلول وبدائل، بينما قد يأتي الغد حاملاً إجابته في طِيَّاته. كأوراقٍ خريفيَّةٍ ذابلةٍ منبسطةٍ يتقاذفها الهواء، تصير حياتكم. تُضيِّعون أوقاتكم في القلق والاضطراب فتخسرون اليوم في الخوف من الغد، وحينما يأتي الغد برسالة أمانٍ وسلامٍ، يتحوَّل خوفكم إلى ما بعد الغد. وإن حمل لكم الغد في جعبته خبز الألم، ثِقوا أن خبز الألم معجونٌ بتعزيات النعمة طالما أن عيونكم شاخصةٌ إلى فوق، نحو السماء.

ما الحياة سوى حصد اللحظات الآنية بمِنجل الأبديّة، وافتداء الزمان الحاضر بالزمان الآتي ...

استوَى الجميع في مجلسهم على المقاعد الخشبيَّة وهم يتهيَّأون لسماع كلمات الكاهن. اعتلَى الكاهن المنجليَّة ليُلقي بالكلمة التي اعتادها مرتادو قُدَّاس الأربعاء بعد قراءة الإنجيل. كانت كلمات الكاهن بسيطة للغاية، بمثابة توضيح مباشر لكلمات الإنجيل.

كان الدكتور رفيق جالسًا يستمع لكلمات الكاهن وهو مُطرَق الرأس كعادته. آه .. لو سنحت لي الفرصة لإلقاء كلمة على الشعب، لألقيت نارًا بقلوبهم لن تستطيع مياه إبليس أن تُطفِأها. كانت تلك هي الفكرة التي بَدَتْ واضحة للملاك حينما نظر إليه. التقطها ليدوِّنها في وريقاته.

منذ حوالي أربعة أسابيع دُعي الدكتور رفيق لإلقاء كلمة على الخدَّام في الاجتماع الإسبوعي يوم الجمعة. كانت كلماته قويَّة رصينة موثقَّة بنصوص الكتاب، كما لم يغفل القصص المعاصرة والشهادات الحياتيَّة التي تجتذب القلوب. عظته كانت نموذجيَّة. انفعالاته واضحة بلا مبالغة. ألفاظه رشيقة. صوته يعلو ويهبط في ايقاع منتظم فيعلو بالقلوب ثم يُسكِّنها. كلّ من تحدَّث معه يشعر وكأنه يمتلك الحقيقة، ولكن ما بين استلهام الحقيقة وامتلاكها بونٌ شاسع.

بعد الكلمة تحلَّق حوله الخُدَّام على غير عادةٍ ليستوضحوا منه بعض الأمور اللاهوتيَّة مسار الجدل في نقاشاتهم وحواراتهم. كان يجيب بتحفُّظ بدا واضحًا للجميع. لم يَرِد أن يميل لرأي على حساب الآخر، ليربح الجميع. سِعة اطلاَّعة ومعارفه المتنوِّعة كانت مثار إعجابهم فأطلقوا بكلمات المديح والثناء عليه بينما كان يُطْرِق برأسه إلى أسفل في حياءٍ أو شبه حياء!!

التساؤلات كانت تتدفَّق عليه كسيلٍ يروي ذاته المتعطِّشه إلى المديح. وكبحرٍ لا يشبع من الماء كانت نفسه تبحث في الأعين التي حوله عن الافتتان. كثيرًا ما كان يصمُت شارعًا أذنيه وكأنه يصغي، بينما كان يُفكِّر في قرارة نفسه في كلماته التالية، وكأنه يستلهمها من مخازن الحكمة الدهريَّة. أفكاره كانت

كشرارةٍ تُومِض في ظلمة العقول الناعسة الخاملة فتُلهبها للحركة والعمل. كم من شخصٍ قد حرَّكتهم كلماته للسير على دروب الرب. مِنهم مَنْ قد تكرَّس ومنهم مَنْ ترهَّب، ومنهم مَنْ سيم كاهنًا. كان واعيًا بذاته ودوره وتأثيره، وكانت تلك هي تجربته العظمَى ...

أنتم أيها البشر تحملون في أوعيتكم مواهبٍ منسكبة من السماء لتُعلنوا بها بشارة الملكوت. بعضكم يَطْمُر مواهب السماء في بواطن الأرض لتتآكل. وأخرون يحمِلون المواهب عاليًا ليكرزوا بذواتهم المُتميِّزة، ويحشدون حولهم الجموع الجائعة إلى النور، ليملأوا بطون ذواتهم من لذَّة المديح ومشهيات الإعجاب. بينما يقف المخلِّص حاملاً أوعية ماء الحياة، ينتظر الجموع، فلا يجد!!

عاد إلى بيته وهو محمولٌ بنشوة التميُّز. كانت كلمات الثناء تدور في فكره دورات متتابعة منعته من قراءته الليليَّة المعتادة. لكن النشوة التي مَلَكَتْ جنبات قلبه بالسعادة، كانت مشوبةً بنخسٍ. كان هذا هو مبعث حيرته. لقد شهدت الفترة الأخيرة نجاحات خدمته، التي وصلت أصداؤها إلى الكنائس المجاورة. إلاّ إنَّ ألمًا عميقًا كان يتملَّك كيانه الداخلي. كان كطعنات سيفٍ لا تهدأ، تتوغَّل بنِصالها إلى مخدع سِرّه القلبي، فتجرح سِرّ نفسه الدفين تحت رمال الأيام والسنين؛ ذلك السِرّ الذي أخفاه عن الجميع بل وعن ذاته!!

ألست أداةً طيِّعةً في يديك يا مخلصي القدوس لإشعال النور في القلوب؟.. ألم يخرج كلّ من جالسني وقد ارتشف من معارف حياة الروح، قطرةً، بعد جدبٍ وجفاف؟.. لِمَ إذن هذا النخس المتوالي؟! هكذا صلَّى ...

***

تذكروا يا أحبّائي قول يوحنا المعمدان:

من له العروس فهو العريس

وأما صديق العريس الذي يقف ويسمعه

فيفرح فرحًا من أجل صوت العريس

إذاً فرحي هذا قد كَمُل

ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.

كانت تلك هي الكلمات التي ألقاها الكاهن في عفويَّة وبساطة، لتجد مستقرًا لها في ذهنه الحائر. بَدَتْ الكلمات من إلحاحها وكأنها تترصَّده. حاول الانفلات منها مرارًا دون جدوَى. ألقَى برأسه على راحتيه وقد بدأت الكلمات تعمل فيه عملها، كانت تخترق نفسه الجريحة لتُلقي بالنور على الأفكار فتُظهر حقيقتها التي تورات خلف عمل الله.

لم يكن الله وحده هو الذي أخدمه، بل ذاتي. الثناء الذي اتلقَّاه كان هو دافعي للعمل والاستزادة من المعارف واتقان العظات والظهور بمظهر التقوى ... إنها الذات التي اختبأت خلف عمل الله، فأخفت عني الله ... ياربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطِئ ...

لقد كنت أتزايد مجدًا وكرامةً على حساب الله. كنت أنا العريس بدلاً من المسيح. انتشيت بدور البطولة الذي كنت أتقنه على المسرح الكنسي. عظات ومحاضرات وتأمُّلات بلغت عنان السماء، بينما غابت السماء عن قلبي. زاحمت الله في عرش المجد، فترك لي مجد العالم وحُرمت من مجد السماويات ... ياربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطِئ ...

إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتَمُتْ
فهي تبقَى وحدها
ولكن إن ماتت، تأتي بثمرٍ كثيرٍ

هل كانت آذانه تتلقَّف بعض الكلمات من العظة، أم هو الروح الذي كان يبعثه برسائلٍ خاصةٍ على فم الكاهن؟! لم يدرْ. كانت الكلمات كَسِربِ نحلٍ حطَّ على قلبه كما على زهور الربيع ليمتص منه رحيق الندم ويحوِّله إلى عسل التوبة.

تصاعد من قلبه أنين على عمرٍ مضَى في وهم الخدمة، وإذ بها في النهاية هي خدمة الذات. تلقَّف الملاك أنينه ووضعه في زِقِّ التوبة الخاص به، إذ أن كلَّ شخصٍ له زِقٌّ للتوبة يجمع فيه الملائكة نتاج توبته وكأنهم يجمعون لآلِئ نفيسة يصعدون بها كلّ يومٍ لإبهاج قلب الآب السماوي.

بدأت الملائكة تتقاطر حوله لتعزية قلبه المجروح بمعرفة الحقيقة. وكلَّما تصاعدت الأنــَّات من قلبه تصاعد معها تسابيح الملائكة. كانت أنــَّاته وكأنها اغتسال وحميم لنفسه المجروحة.

ما أروعك أيتها التوبة، يا شجرة النور التي يقتطف منها البشر فيستنيروا.

من مذكرات الضال الأسطوانية الإلكترونية

بدأ إنشاد قانون الإيمان. وَقَفَ الجميع وقد أخذهم الحماس. كان ترتيلهم عفوي يتعالى فيه بعض الأصوات، وإن لم تكن أجملها، إلاّ إنَّ التسبيح في مجمله كان حماسي الطابع وكأنه هتاف معركة. ولِمَ لا؛ ألم يكن هذا القانون هو نتاج معركة حامية الوطيس مع الهراطقة الذين أرادوا خلق لاهوت خاص بهم يوافق معارفهم وعقولهم؟!

أوقف الملاك ريشته التي كانت تَحفُر الوريقات بأفكار البشر. وَقَفَ كلّ الجمع الملائكي ينشِد مع الكنيسة قانون الإيمان، بينما كان الجمع الأسود يقفز من فرط الألم الذي ألمَّ به من جرَّاء ذلك التسبيح الجماعي، وكأن الجموع كانت تقذفهم بألسنةٍ من نار. بَدَتْ الكنيسة وكأنها تتأرجح مع الهتاف. صار الوضع غير محتملاً لهم. حاولوا البحث عن عقول شاردة وقلوب لاهية ليتحصَّنوا بها فلم يجدوا. كان الحماس يدفع شطط الأفكار بعيدًا في تلك اللحظات. كان التسبيح كرعدٍ حرَّك صخور القلوب المتحجِّرة. تبارى الجميع في الهتاف وكأن الهتاف يدفع بالصلاة إلى أقصى المدى، نحو الله. حاول الجمعْ الأسود ليّ أوتارهم وشدَّها لتصويب بعض السهام ولكنهم عجزوا من الخوف، كانت أيديهم ترتعش من قوة الصلاة المنبعثة من أفواه المُصلِّين. لم تحتمل كتلة الظلمة ذلك الحماس في الصلاة، هرولوا مُسرعين إلى الخارج على أمل انتهاء حماسة التسبيح التي سَرَت كتيارٍ جارفٍ في قلوب المتعبِّدين..

وننتظر قيامة الأموات

وحياة الدهر الآتي. أمين

آه .. أيها البشر لو كانت لكم تلك الروح في الصلاة على الدوام، لما استطاع إبليس ومعاونوه أن يجدوا لهم مكانًا في قلوبكم ولا في عقولكم.

ساد صمتٌ في الكنيسة للحظات، قبل أن يقف الكاهن أمام المذبح ويشْخَص للسماء وهو محاطٌ بشمامسة قد اصطفوا علي جانبي المذبح يمينًا ويسارًا ..

لحظات الصمت والسكون هي اللحظات التي يمتلك فيها البشر بصائر جديدة يستطيعون بها أن ينفذوا إلى وِهاد النفس السحيقة ويشاهدوا حركات الأفكار ومجاذباتها ودوافعها ومآملها.

كانت تلك هي آخر كلمات الملاك في الوريقات التي كان يحملها بيده بعد انتهاء قُدَّاس الكلمة. وكأنه أراد لريشته أن تصمت للحظات قبل أن تعاود تسطير ما في قلوب البشر ..

أليس جميعهم أرواحًا خادمةً،

مُرسَلَةً للخدمة، لأجل العتيدين أن يرثوا الخلاص

(عبرانيين ١: ١٤)

www.facebook/seraphim el baramosy